كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، خلال افتتاح ندوة حول "الشيخ حسن خالد مفتي التوازنات الوطنيّة والعيش الواحد" من ضمن سلسلة محاضرات "وجوه حواريّة" برعاية مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة سماحة الشيخ عبد اللطيف دريان، ومن تنظيم معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف، وذلك يوم الجمعة الواقع فيه 24 أيّار 2024، عند الساعة السادسة مساءً، في مدرّج فرانسوا باسيل، حرم الابتكار والرياضة.

من بعد الدعاء لله عزّ وجلّ، أهلاً وسهلاً بكم في دار الجامعة اليسوعيّة، هذه الدوحة التي ناهز عمرها الـ 150 عامًا إذ تأسّست في السنة 1875 وما زالت خادمة للعلم والمتعلّمين ومتعبّدة للأمل بعافية هذا الوطن بالرغم من كلّ النوائب.

إنّه لمفخرة لنا في الجامعة اليسوعيّة أن نضمّ إلى برنامج "وجوه حواريّة" عَلمًا من أعلام هذا الوطن اللبناني عبر معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة في كليّة العلوم الدينيّة. ويزداد الفخر فخرًا بأن يكون هذا العلم هو الشيخ حسن خالد الشهيد ذي الصوت القوي والعالي حتى اليوم الذي روت دماؤه تراب لبنان والعاصمة بيروت ليبقى الوطن والكرامة والإنسان في ضفّتيه الإسلاميّة والمسيحيّة أقوى من أيّ تعنّت واستبداد، وطن السيادة والحريّة والعدالة لجميع أبنائه.

فإنّي أقول ونحن على مسافة أيّام خلت من الذكرى الخامسة والثلاثين لاستشهاد من أجمع اللبنانيّون أنّه كان داعيًا للعيش المشترك وللحلّ السلمي للنزاعات وللوحدة الوطنيّة العميقة الجذور لا تلك التي يتغنّى بها بعض الشعبويين والطارئين.

وإنّي أشكر القيّمين على برنامج "وجوه حواريّة" لاختيارهم الصحيح وإعدادهم لهذه الندوة، كما نشكر صاحب السماحة المفتي دريان على تشجيعه لهذا التكريم، كما نشدّ على يدّ اللذين يقومون بدراسات أكاديميّة حول هذه الخطبة من حياة الوطن ومشاكله.

شغل لمدة 23 عامًا منصب رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى في لبنان، وهو أعلى سلطة شرعيّة إسلاميّة سنيّة. يدل هذا المنصب على تأثيره الكبير داخل الطائفة السنيّة. وكان يقول إنّ الزمان الجديد هو زمان المؤسّسات المستنيرة التي يصنعها التفكير الجديد، وتخرج من الفساد والإفساد، وتتأهّل لخدمة المسلمين في الشؤون الدينية والاجتماعيّة وحتى السياسية إذا لزم الأمر. بالمقابل، وبعد كل تلك السنوات من العطاء يحفظ السُنّة لا بل اللبنانيون اسم حسن خالد، كما يحفظون أسماء الفرسان في تاريخهم.

وفي خضمّ الحروب الأهليّة في لبنان (1975–1990)، وما شهدته البلاد من عواصف سياسيّة واحتقانات طائفيّة واحتراب أهليّ، بادر سماحة المفتي الشيخ الشهيد حسن خالد إلى القيام بأدوار ومبادرات سياسية جريئة وبارزة... لم تعجب بعض من أرادوا وضع اليد على مصير الوطن

لم تكن دوافع المفتي خالد خوض غمار السياسة إلا وطنيّة. كانت دوافعه العناية بالمجتمع اللبناني الذي كان في حال تصدّع والدولة التي تنهار مؤسّساتها وتنقسم

وتتفتّت. لذا تحوّل مفتي الجمهورية إلى مرجعية سنّيّة ووطنية ضرورية، فاعلة لا يمكن تجاوزها في ظلّ تغييب القرار السياسي الإسلامي اللبناني.

استطاع المفتي خالد، في غمرة الحرب، أن يبني جسور الحوار والتلاقي والمصالحات بين اللبنانيين، من خلال قمم عرمون التي كانت تُعقد في منزله في عامَيْ 1976 و1977. وهو مَن وضع مع الإمام محمد مهدي شمس الدين (1936–2001)، "وثيقة دار الفتوى للثوابت العشر"، في عام 1983. وقد نصّت الوثيقة على أنّ "لبنان وطن نهائي لجميع أبنائه".

كان شعار المفتي خالد الدائم: "العودة إلى مرجعية الدولة القويّة والعادلة، دولة المواطنة الجامعة، وحكم القانون، والحريصة على الأرض والشعب، ولمقاومة العدوّ الإسرائيلي".

كانت لديه الشخصية المميّزة التي لاقت الاعتراف الدولي حيث شغل المفتي خالد منصب نائب رئيس رابطة العالم الإسلامي في مكّة المكرمة، المملكة العربيّة السعوديّة، مما يدل على مكانته في العالم الإسلامي الأوسع.

والى الاعتراف الدولي حصل سماحته على التقدير العلمي حيث مُنح الدكتوراه الفخريّة من مؤسسات مرموقة مثل جامعة الأزهر في مصر وجامعة جين جي في الصين أمّا في تفكيره فكان منفتحًا متحرّرا، وقد تركت دراسته للفلسفة الإسلاميّة ولعلوم الكلام والمنطق أثرها في سعة مناهج التفكير لديه وسماحة البحث الحر

والابتعاد عن التعصّب، ولكنه ينتهي دوماً إلى التمسك بأخلاق الدين والتقيّد بمناهجه. وكان جريئاً في الحق يعلن رأيه في وجه القادة والرؤساء دون مهاودة أو مساومة، ولقد ظل مواظبًا على هذا الاتجاه منذ ممارسة عمله في الوظيفة ورسالته في التوجيه حتى أجمع المسلمون والمسيحيّون بكل فئاتهم في لبنان على تقديره وتوقيره ونزاهته.

وكان الشيخ حسن خالد رجل علم قلّ أن يشهد معاصروه اليوم وقارئوه غدًا عالمًا يتّصف بما اتّصف به من علم وحلم وتواضع وتفان في رعاية أبناء أمّته وتلبية ما استطاع من مطالبهم ومشكلاتهم وحاجاتهم – إلاّ أنه كان داعية للوحدة فعُرف كرمز للتعايش

ومن المهم الإشارة إلى أن المفتي خالد اغتيل شهيدا في عام 1989 وهو في أوج عطائه وتألّقه. وعلى الرغم من أن جهوده من أجل السلام لم تستطع الوصول الآني الى نتيجة، فإنّ جريمة اغتياله تركت أثراً عميقاً في نفوس المسيحيين والمسلمين على حد سواء. لم يكن ذلك الاغتيال وحيدًا حيث جرى في العام 1987 اغتيال الشيخ الدكتور صبحي الصالح صديق المفتي ونائب رئيس المجلس الشرعي الأعلى بدار الفتوى، وأحد كبار علماء المسلمين. فكان اغتيال الاثنين أكبر صدمةٍ نزلت على المسلمين والمسيحيين، والبيارتة يسمُّونه بالدارجة: "المفدي" حتى اليوم.

وعند الاغتيال فتح البطريرك الماروني آنذاك نصر الله صفير مقر بكركي للشخصيّات المسيحيّة التي لم تتمكن من السفر إلى بيروت الغربية لتقديم واجب العزاء. قال البطريرك وقتها "لقد فقدنا فيه صديقاً عزيزاً جداً تربطنا به صداقة متينة واحترامًا متبادلا. إن وفاته المفاجئة خسارة وطنية كبيرة، لا سيما في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ لبنان"، وقال الكاردينال صفير آنذاك : "نهاية المطاف منع الدمار الذي خلفته الحرب، إلا أنه يُذكر كقائد عمل من اجل جمع الناس للحوار في سبيل إرساء قواعد التآخي لا التناحر".

بقيت ذكراك خالدة أيّها المفتي الشهيد في قلوب اللبنانيين وعقولهم، أمثولة عطاء والتزام واحترام متبادل، ودعوة إلى شدّ الأواصر وتأكيد الإصلاح الإداري والسياسي والأخلاقي، فصلاتك نحن دومًا بحاجة إليها ليبقى اللبنانيّون متعلّقين بلبنان وطن الحريّة والأخوّة والإيمان والعدالة.